



في واقع تراجيدي حزين

استرقاق العرب... سيفرٌ طويل للظلم والإذلال

استعمر الأتراك البلاد العربية بأشجع صور الاستغلال والاستبداد، وقاموا بتهجير السكان قوّةً وقهراً نحو المجهول، والزج بهم في أتون حروبهم من دون أن يعوا سبب هذه الحرب والمشاركة فيها.

مارس العثمانيون التعجرف والغطرسة العنصرية للعرب؛ فلم يراع الأتراك حرمة الدين والجوار، فقلّبوا ظهر المجن، وامتلأت قلوبهم على العرب بالأحقاد والإحن، وتنكروا لكل شيء يربطهم بهم، ولم يعطوا وإنما نهبوا وأكّدوا، واخترعوا كل داهية للتكيل والبطش، ورسّموا بساطور البغي صورة مأساوية من صور العبودية والاستعباد النفسي والجسدي، خاصة إذا كان ذلك يقوم به نظام يزعم أنه دولة الخلافة الإسلامية آنذاك!.

”
"العثمانية"... مسيرة دمار
وخراب عربي باقتدار.

“

دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى عام 1914م متحالفة مع دول الوسط ضد دول المحور، فما كان من العثمانيين إلا أن أعطوا أوامرهم لحشد الناس من البلدان العربية الواقعة في حكم الدولة العثمانية، فكان لزاماً من النفير العام؛ وذلك لخوض تلك الحرب الضروس فحُشد الناس قسراً وظلماً دون الرغبة في التهجير وخوض الحرب التي أطلقوا عليها السفر برك. وهي كلمة تركية مكونة من مقطعين (سفر) وتحمل نفس المعنى العربي، و(برلك) وتعني (معاً) أو (جماعة)، بمعنى النفير العام للحرب.

وجريمة سفر برك واحدة من تلك الجرائم الشنعاء التي ارتكبتها العثمانيون فألحقت الضرر الجسدي والنفسي في حق الشعوب العربية، والدلالة النفسية لدى الإنسان العربي في بدايات القرن العشرين، توحى بالرعب والبؤس والحظ السيئ والسفر المشؤوم الذي لا رجعة منه، كما تؤكد ذلك كتابات المؤرخين الذين عايشوا تلك الفترة، فالتهجير الجماعي أو العمل سخرة دون مقابل جانبان مظلمان تشير إليهما السفر برك، الصورة الأخرى لاستعباد الناس وقهرهم.

مرت بعض المناطق العربية بسنوات مريرة جراء سفر برك الحكم التركي، حتى غدا سيفراً طويلاً من المعاناة والإذلال، فاستفحل الظلم وبلغ مبلغه، وضاق الناس بذلك، وانبرى العلماء والكتّاب والأدباء للدفاع عن العرب، وضجت أسفارهم بالتوضيح تارة والتلميح تارة أخرى، فتصدوا للمؤامرات، وكشفوا جانباً من جوانب هذا الظلم.

”
"سفربرلك" عمدت إلى
تحويل أعداد كبيرة من
المُهَجَّرين العرب أرقاء.

“

كانت واقعة سفر برك مخطط عثماني سياسي محض، لعزل المدن العربية، ومنها المدينة النبوية التي سعى العثمانيون إلى سلخ هويتها، وجعلها واحدة من مدن الدولة العثمانية ومركزاً يضفي عليها الطابع التركي؛ وما (سكة الحجاز) التي قام ببنائها الأتراك إلى المدينة المنورة إلا طريق آخر للعباد والتهجير، فلم تكن إلا لغايات سياسية صرفة.

أضحت حادثة سفر برك صورة من صور المآسي والنكالي تحكي مشاهد أليمة لآلاف من الأسر سُجِّدت من موطنها وهُجِّرت قسراً، حكايات من الظلم والقهر سطرتها أروقة المدينة وغيرها من المدن العربية، إنه التمرد على سنن الكون والحياة.. والامتهان للقيم النبيلة.

كان العثمانيون وباءً أصاب الأمة العربية في مقتل ورمها بداءٍ عضال، فاستشرى في كل أنحاء الجسد المنهك الذي توالى عليه المصائب والأدواء، فلم تكن فلسطين وسوريا وبغداد بعيدة عن المآسي التي نالوا منها نصيباً عظيماً من الحرب والتهجير، فقد حشد الطغاة العثمانيون الآلاف من أشد أبناء بلاد الشام فؤجها حيث الحرب في بلاد القفقاس، فتصوروا جوعاً وهلكوا برداً، وعانوا من البُعد والجروح والآلام فما عاد منهم إلا خلق بسيط، فلا يخل بيت من الشام إلا وهو مكلوم بفقد أو بُعد عزيز.

ومن المنطقي أن يقنع المؤرخ بأن اللحظة التي استعمر فيها العثمانيون الأتراك العالم العربي، كانت بداية رفقة العذاب باستعباد الناس وقتلهم، فقد تشرب العثمانيون السادية، وتعطشوا للدماء، فأخذوا قتلًا وسفكًا وإرهابًا بالعرب بسبب ودون سبب، وقتلوا من العوام والفتيان من لا ذنب لهم، ففي أربعة أيام قتل سليم الأول في مصر عشرة آلاف نسمة من أهل أحياء في مدينة واحدة، أما السلب والنهب فهي جزء من طبائعهم، فقد كان الجيش العثماني يدخل بيوت المصريين فيسرق كل ما فيها، ويبيع النساء والأطفال في سوق النخاسة، وكتب التاريخ تزخر بالأحداث الأليمة التي ارتكبتها العثمانيون في مصر.

سطر التاريخ صفحات سوداء لحكم الأتراك من بني عثمان؛ تاريخ ينفث بالعبودية والإرهاب وأبشع الجرائم، لم يكن الأمر وليد ظروف سياسية محددة، أو خاصاً بفترة زمنية محددة، بل كان نمط حكم يغلب على سلاطين وقادة العثمانيين الأتراك، لقد تشبّع بعضهم إجراءاتاً ونزقاً في سفك دماء العرب، وكأن ذلك مبدأ متجدد ومتأصل في سياساتهم ضد العرب منذ بدايات الاحتلال التركي للأراضي العربية، وكأنها مسيرة للدمار والخراب للعرب في ظل حكمهم، فغدا واقفاً تراجيدياً حزيناً.

(1) محمد الساعد، سفربرلك (الرياض: مدارك، 2018)

(2) إبراهيم شعبان، الدولة العثمانية .. 6 قرون إرهاب وإخساء وحريم، (مقال بصحيفة صدى البلد، السبت 7 سبتمبر 2019).

(3) حسن الضيقة، دولة محمد علي والغرب، الاستحواذ والاستقلال (بيروت: المركز العربي الثقافي، 1997).

(4) طلال الطريفي، العثمانيون ما كان حديثاً يفترى، ط4 (الرياض: دار ائتلاف، 2020).

(5) محمد مروان، "الإنكشارية قوة الدولة العثمانية وضعفها"، ليبيا، المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، مج2، ع8، يونيو 2017.